

الإسلام مهد السبيل :

رسالة اللغة العربية

كأداة علم وحضارة

بمؤسّاذ ابروكس بن رائد العريزي

ممثل الرابطة الدولية لحقوق الانسان
في الاردن

أ - انه لولا الاسلام ، لما تأتى لـ (اللغة العربية)
ان تنتشر في العالم .

ب - انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن ، لما
انتشر الاسلام .

فجوابي على النقطة الاولى هو الايجاب ، وقد
سبق لي ان أكدت ان اللغة العربية مدينة للاسلام
باننتشارها ، لان اتساع رقعة الامبراطورية العربية ،
وارتباط مصالح الناس المعاشية والاجتماعية ،
والسياسية والدينية بأصحاب السلطة - العرب -
مهد بل عمل على نشر اللغة العربية ، وفرض
انتشارها .

اما النقطة الثانية ، فهي شهادة لروعة اللغة
العربية ، ولجمالها ، ولكمالها ، ولسحرها ، ودليل على
انها فرضت نفسها بعد ان مهد لها الاسلام ، فجعلت
الاسبانيين يعشقونها ، ويعشقون من أجلها العلم ،
فاضحت الاندلس ، في أيام حكم العرب ، خالية من
الامية ، والإميين ، في الوقت الذي لم يكن في أوروبا من
يلم بالقراءة والكتابة ، سوى الطبقة العليا من
القسيسين والرهبان .

واتخذ (غليوم) خلف (روجه) ملك صقلية اللغة
العربية لغة بلاطه ، وجعل شعاره (الحمد لله) .

والبابا (سلفستر) الثاني نظم قصائد باللغة
العربية موزونة مقفاة ، ومثله فعل (فردريك) الثاني
ملك صقلية ، اذ نظم الشعر بالعربية ، وجبجج في
بلاطه طائفة من علماء العرب وشعرائهم ، ليضفي على

لا شك ان انتشار الاسلام في اول عهده ، كان
عاملا من أهم العوامل ، في انتشار اللغة العربية ،
وزادت أهمية ذلك العامل ، بعد ان نقلت الدواوين من
اللغات الاجنبية الى اللغة العربية :

أ - القبطية في مصر .

ب - الفارسية في العراق .

ج - والرومية في سورية .

لان مصالح الناس ارتبطت ارتباطا وثيقا رسميا
بلغة الفاتحين ، اصحاب السيادة . فأسمى الذي يريد
ان يضمن لنفسه مركزا مرموقا في الدولة الجديدة ،
مرغبا على تعلم اللغة العربية ، سواء أدان بالاسلام ،
أم لم يدن به .

*

وليس الامر خاصا باللغة العربية وحدها ، فالناس
في كل زمان مولعون بتقليد الغالب في كل شيء . فلما ساد
اليونان تغلبت لغتهم ، ولما ساد الرومان سادت لغتهم ،
ولما توالى انتصارات فرنسا ، انتشرت اللغة الفرنسية
ولما ساد الانكليز سادت لغتهم في الهند . وعندما
حكم البرتغاليون انتشرت لغتهم بحكم المصالح
المعاشية .

*

اما السؤال الايضاحي ففيه نقطتان مختلفتان
وهما :

الناظر اليهم يخالهم يؤلفون اسرة واحدة وقد استطاعوا بفضل كل ذلك ، أن ينموا ويكثروا ، على تقيض دعاة الاديان الاجنبية عن الصين ، الذين لم يتقدموا خطوة . وقد وثق امبراطور الصين بهؤلاء العرب فكريهم ، ووصل بعضهم الى أعلى مراتب الحكم ، والى قيادة الجيوش .

*

فلو كانت اللغة التي نزل بها أي كتاب مقدس أو كتب بها ، أو لغة مؤسس الديانة نفسه ضرورية لنشر ذلك الدين ولانتشاره في العالم ، لكان يجب ان تكون — بناء على هذا القياس — اللغة التي تكلم بها السيد المسيح (الارمية) وبشر بها مهيأة لنشر الديانة المسيحية ، ولكانت اللغة اليونانية القديمة التي كتبت بها الانجيل — ماعدا انجيل لوقا الذي كتب بالارمية ، وفقدت نسخة الارمية ماعيدت كتابته باليونانية — لكانت سبيلا الى نشر الدين المسيحي ، ولكان بالتالي ، يجب على كل مسيحي أن يتكلم لغة السيد المسيح ، أو لغة الانجيل — على اقل تقدير — وليس الامر كذلك ، بل لقد ماتت (الارمية) وانطوت اليونانية القديمة ، ولم يقف موت (الارمية) و (اليونانية القديمة) حاجزا دون انتشار الديانة المسيحية في العالم .

*

وقد لاحظنا ان اللغة العربية — على الرغم من سحرها وجمالها ، وعلى الرغم من كونها لغة القرآن الكريم — لاحظنا ، انها عجزت ان تتشقق طريقها الى أكثر الامم التي دانت بالاسلام ، ولم يحل ذلك دون انتشار الاسلام .

وحكم (الفساسنة) الذين هم عمال للروم ، ديارنا الاردنية ، وكانت العربية لغة الفساسنة ، ولغة الارادة ، مع هذا فقد ظل القوم هم واعقابهم ، على نصرانيتهم وظلت القبائل النصرانية القوية في البلاد تحتفظ بنصرانيتها وبلغتها العربية ، وتقاليدها ولم تحولها لغتها العربية عن دين آباؤها واجدادها — على رغم المساعدات التي قدمتها تلك القبائل النصرانية لآخوانها العرب المسلمين الفاتحين ، كيني تغلب ، وعشيرة العزيرات التي تنتمي الى بني شيبان وكانت فيها سدانة العزى وعبادتها ، فقد ساعدت في واقعة (مؤتة) وبقيت نصرانية ، ومسلموا الاردن كانوا يجهلون القرآن والكتابة ، ولم يكن بينهم من نحو مائة وأربعين سنة من يقرأ القرآن ، ومع هذا فانهم لم ينصرفوا عن اسلامهم ، فصاموا وصلوا وحجوا ،

بلاطه هيبة تصور خلفاء دمشق وبغداد ، وامسراء قرطبة واشبيلية ، أجل كان هذا كله ، وزاد عليه ، ان اللغة العربية بقيت لغة التقليد في الحب ، والعلم والشعر ، في ايطاليا والمانيية ، ولا سيما في صقلية وبروفنسا ، مع هذا كله ، فاني لا أرى أن اللغة العربية وسحرها وجمالها ، كانت سببا في انتشار الاسلام . فكل دين — في رأي المتواضع — يحمل عناصر انتشاره في تعاليمه ، لا في لغته . فلقد دانت أمم كثيرة بالاسلام ، من غير أن تعرف اللغة العربية ، ولا غيرت لغاتها من أجل الاسلام ، ولا من أجل القرآن ، وقد كان العكس ، فقد ترجم القرآن الكريم الى لغات القوم ، وليس في ذلك تحيف لقدرة القرآن الشريف .

*

ففي العالم اليوم خمسمائة مليون مسلم ، من كل امة ، ومن كل لغة ، ومن كل لون مهمل يفرض عليهم تعلم اللغة العربية ، لتعترف لهم بانهم مسلمون ؟ ونظرة بسيطة ترينا أن المسلمين موزعون هكذا بحسب احصاء سنة 1965 .

- ا — عرب في آسية 24 أربعة وعشرون مليوناً .
- ب — ترك في الاتاضول 17 سبعة عشر مليوناً .
- ج — ايرانيون في ايران 16 ستة عشر مليوناً .
- د — افغانتيون في افغانستان 10 عشرة ملايين .
- هـ — هنود وباكستانيون 85 خمسة وثمانون مليوناً .
- و — في جاوى 56 ستة وخمسون مليوناً .
- ز — روسيون 25 خمسة وعشرون مليوناً .
- ح — افريقيون 100 مائة مليون .
- ط — أوربيون وأمركيون 3 ثلاثة ملايين .
- ي — صينيون 50 خمسون مليوناً .

وقد احتفظوا بلغاتهم ، واحتفظوا باسلامهم ، وترجموا القرآن الكريم ، ففهموا دينهم من غير حاجة الى اللغة العربية . وأكثر من هذا ، فان مسلمي الصين عرب اصلا ، نسوا لغتهم ، وظلوا مسلمين ، فهم منحدرين من الكتبية التي أرسلها الخليفة أبو جعفر المنصور ، نجدة للامبراطور (سوتسونغ) سنة 755 للميلاد ، يوم ثار عليه (اللوشين) فكافأهم الامبراطور بالاقامة في أهم مدن الصين ، فتروجوا بصينيات ، وتناسلوا على طول الدهر ، وقد كان شرف هؤلاء القوم يفوق الوصف ، لانهم اتصفوا بالصدق والعدل ، والصلاح ، وكان الذي يتقلد منهم منصبا يتمتع باحترام الناس وبحبهم . والذي يتعاطى التجارة منهم ، يمتاز بحسن المعاملة ، وبطيب السمعة ، وكان

وكان سؤال الرجل منهم ، أو استجوابه بالقرآن الكريم ، يجعله يترحم حتى يجزئته للقتل نفسها ، خوفاً من أن يحلف بيديها فاجرة ، ولو كان المقام يتسع لذكر حوادث بعضها ، لنذكرها .

إذا ، فإنا لا نستطيع أن نطمئن إلى الرأي القائل :
« انه لو لم تكن اللغة العربية لغة القرآن لها انتشر الاسلام ! »

*

لما كون الوعي الاسلامي ، والوازع الديني يتويان ويضمنان تبعاً لما يعترى لغة الضاد من قوة وضعف ، فالواقع في اعتقادي ، ان المسألة ليست بمسألة قوة لغة ، ولا هي مشكلة ضعف لغة ، لكنها مسألة عقيدة تلامس القلب ، والعقل والضمير . وكل دين في الدنيا ، لا بد له من ان يمر بمرحلتين :

١ - المرحلة الاولى - مرحلة اعتناق الدين ، والايان بحقائقه ، وندمها - اصطلاحاً - دهشة الدين ، وتصحبها استماتة في سبيل هذا الدين ، وتمتدحيس لكل عقيدة من عقائده ، والتقييد بكل اوامره وتواهيه ، ومحاولة الانتداع بمعلم هذا الدين وبحواريه الى درجة ان تابع هذا الدين يستلذ الشهادة في سبيل نشر هذا الدين ، والجهر به ، ولسنا في حاجة الى ذكر مواكب الشهداء لكل دين من الاديان ، في دهشة الدين ، فالامر مشهور ، ومحاولة البرهنة عليه ، من باب محاولة اقامة الدليل على طلوع النهار والشمس مشرقة ، وفي هذه المرحلة ، تكون الرابطة الدينية اقوى من رابطة النسب نفسها ، واقوى من الرابطة القومية .

ب - المرحلة الثانية ، وهي مرحلة ظهور مفسرين لحقائق الدين ، وتسرب الخلاف بينهم ، بسبب خلافهم على فهم الالفاظ وتفسيرها على ظاهر اللفظ أو على بواطنه ، وهنا ، تبدأ الرابطة الدينية تفترق !

ج - المرحلة الثالثة ، وهي مرحلة الشكوك ، والفلسفات والبدع ، وانقسام اتباع الدين الى فرق وطوائف ، يكثر بعضها بعضاً ، وقد يذبح بعضها بعضاً عن عهد وتصميم ، وهو يعتقد انه يتقرب الى الله بذبح أخيه ليحيى الدين ، لانه مخالف له في الرأي - ويصحف التاريخ ملأى بالشواهد على صحة ما نقول ، وفي هذه المرحلة ، يقضي على أي أمل ، في جعل الدين رابطة بين اتباعه ، حتى بين ابناء الطائفة الواحدة .

د - المرحلة الرابعة - وهي مرحلة يصبح فيها الدين - أي دين - مجرد عنوان عزة اجتماعية ، وتسرات

انساني ، يحافظ عليه كما يحافظ الرجل على نسبه الى آبيه واجداده ، ومن هنا ، أرى ان قوة الوازع الديني الضميري وضعفه ، لا علاقة لهما بازدهار اللغة ، ولا بضعفها ، أقول مخلصاً ، ان الوازع الديني أمر خلص بالخضوع للعذب ، لا علاقة له باللغة ، وقد عرّيت اناساً يكاد بعضهم يكون حجة في علوم الدين ، وفي علوم اللغة ، ومع هذا ، فقد كان ضجر الواحد منهم (أوسع من جراب الكردي) كما يقول اليربوعي : لا أثر للوازع الديني في نفوسهم ، ورايت ناساً لا يعرفون من اللغة العربية شيئاً ، مع هذا فقد كانوا مثلاً أعلى في الاخلاق ، وفي الدين العملي الذي هو حسن المعاملة والبر بالبشر .

*

والذي أراه ، ان روح العصر قد زرع العقائد الدينية في النفوس ، وقلب مفاهيم الناس ، وغير نظرتهم الى اصول الحياة والى فروعها ، وهز القيمة الروحية والاجتماعية والخلقية ، من أجل هذا أصبح الدين علاقة شخصية بين الانسان وخالقه ، ولم يعد للدين - أي دين - ذلك الأثر السياسي والاجتماعي الذي كان له فيما مضى . بصرف النظر عن اللغة التي جاء بها كتاب ذلك الدين المقدس ، ونطق بها مؤسس ذلك الدين .

*

عندي ان صرخة بطرس الناسك ، ونداء البابا للذين أثاروا حروباً أغرقت الشرق والغرب بطوفان من الدماء وزجا البشرية في جحيم من الاحتقاد ، لو كانا في يوم الناس هذا ، لاسرع الناس الى بطرس الناسك يزجون في مستشفى المجانين ، ولكن الاحتقار ، والاعراض ، هما الرد العملي على نداء قداسة البابا الذي دعا الى الحروب الصليبية التي كانت برصاً للضمير النصرانية !

*

أقول ذلك ، لان البشرية قد اجتازت هذه المرحلة وأصبحت تتجه اتجاهها قومياً ، وانسانياً ، لا يسمح لأعظم رؤساء الدين مهما يكن نفوذهم الادبي ، ان يغير في حدود دولة من الدول ، ولو كيلو متراً واحداً . فحلت الاخوة الوطنية ، والرابطة القومية محل الرابطة الدينية .

*

تأسس الدين مهذباً للضمير الفردي ، ومنظماً للطبيعة البشرية .

ومع هذا فتأثير الفكر الاسلامي في القوم لم ياتهم عن طريق اللغة ، بل عن طريق الدين والشريعة .

*

وقد انتضخ لي من دراسة اللهجة الاردنية ، ولا سيما لهجة البادية والساكنة القريبة من البادية ، اصولا ومروعا ، ووضعي معجما خاصا بها ، انها من اقرب اللهجات الى العربية الفصحى ، ان لم تكن اقربها اطلاقا ، اذ يمكن رد الكثير الكثير من الفاظها الى الفصحى وتأثيرها في تعابيرنا واسع ، حتى ان بعض الابداء ادخلوا كثيرا من الالفاظ الاردنية العامية في اشعارهم ، فوجدت مكانها اللائق بها ، ولعلها زادت المعنى اصالة وعمقا ، كما فعل الشاعر الاردني المعروف (مصطفى وهبي التل) .

*

وقد وضعت انا نفسي قصة عنوانها (وطنية خالدة) ومجموعة قصص عنوانها : (ازاهير الصحراء) استعملت فيها كثيرا من اللهجة الاردنية الصحيحة والذي يقرأها لا يفرقها عن الفصحى في شيء سوى النطق ببعض الاحرف .

صحيح ان استعمال اللهجة الاردنية بين ابناء الاردن ليس عاما ، لكن تأثير تلك اللهجة عندهم واضح على أي حال .

*

هذا واللهجة العربية ، المكانة الاولى في ديارنا ، وهي لغة التعليم في مراحل التعليم كلها ، ويجب ان تظل لها هذه المكانة ، مع احدى اللغات العالمية الحية ، لانها رابطة من اعظم الروابط القومية . ومن الخير لنا ان نهتم بلفتنا اهتماما يحفظها بخير ، على شرط ان لا نحول اللغة غاية بنفسها ، لان تحويل اللغة غاية يقتلها ، ويقتل فكرنا معها ، ويجعل ابناءنا يكرهونها بل يمتنونها ، ويمقتونها معها ، وليس لي في هذا المقام ، الا ان الجأ الى كلمات الدكتور (طه حسين) القائل : « فالتلميذ اذا ذهب الى المدرسة واستمع الى استاذ اللغة العربية في النحو والصرف ، او في البيان ، لم يستفد من استاذة ، الا شيئا واحدا ، وهو النور من الاستاذ ، والنور من اللغة العربية ، والانصراف الى شيء آخر يلهيه ويربحه من هذا العناء الثقيل ! »

هذا هو رأيي ، الذي املاه علي الاخلاص المؤسس على التجربة .

انا لا انكر قيمة اللغة العربية لانها لغة القرآن الكريم ، ذلك التراث العظيم ، فهي اذا شيء مقدس في نظر كل مسلم ، سواء اعرفها أم لم يعرفها ، ولا انكر قيمتها التاريخية ، فقد كان عدد المؤلفات الفلسفية والتاريخية والدينية والفكرية والجغرافية ، التي كتبت بها خلال المدة الواقعة بين القرن التاسع والثاني عشر للميلاد ، اعظم ما كتب باية لغة ، وما يزال لها اثر واضح في لغات الغرب ، التي استعارت منها مقررات علمية وفنية شاهدا على ما نقول ، وما زالت حروفها اوسع الحروف انتشارا بعد حروف اللاتينية ، من اجل هذا يجب الاحتفاظ بها ، والمحافظة عليها وعلى حروفها كتراث انساني خالد ، نزل به كتاب يقدره خمسمائة مليون من البشر .

لكن ليس معنى هذا ان ازدهار اللغة العربية ، يعني بالضرورة ارتقاء الضمير ، ولعل ازهى اعصر اللغة العربية اطلاقا ، كان يحمل اثنع انحراف في سلوك الامة ، وفي ضميرها ! ..

*

اما في خصوص تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات أو اللغات الاقليمية في الاقطار الاسلامية غير العربية ، او لدى الجاليات الاسلامية في الاقطار الغربية او الاسوية فانهي اعتقد ان تأثير الفكر الاسلامي في الاقطار غير العربية ، جاء عن طريق الشريعة الاسلامية نفسها ، وتطبيقها العملي ، لا عن طريق اللغة العربية ، اتول هذا على الرغم من تسرب الفاظ عربية قرآنية في كل لغة يدين اهلها بالاسلام ، او حكم اهلها العرب ، وبرهاني على ذلك ، ان اللغة الفارسية كان اهلها اشد الناس اتصالا بالعرب فحكهم العرب ، ودانوا بالاسلام ، مع ذلك ، فان اللغة الفارسية لم تغير شيئا من احكامها ، لا من اجل القرآن الكريم ، ولا من اجل اللغة العربية .

فاللغة الفارسية لم تستعمل التنبيه ، ولا فرقت في الصفة بين المذكر والمؤنث ، ولا اشترطت المطابقة بين الصفة وموصوفها ، مع ان اللغة الفارسية من اكثر اللغات تأثيرا باللغة العربية من حيث الالفاظ ، فلناخذ مثلا المصدر (النقل) الذي يدعو بعض العلماء المصدر (الجعلي) الذي يحيق باخره كاسعة (يدن) نحو : فهميدن - الفهم . طلبيدن - الطلب .

أهم دعائم هذه الآراء

- 1 — القرآن الكريم .
- 2 — صحيح أبي عبد الله البخاري .
- 3 — حضارة العرب لغوستاف لويون .
- 4 — الغزالي البارون كارادونفو — ترجمة عادل زعيتر .
- 5 — في صحبة الغزالي — أبو بكر عبد الرزاق المحامي
- 6 — الغزالي — الدكتور حسين أمين .
- 7 — مختصر تاريخ العرب ، والتمدن الاسلامي للسيد ابن علي
- 8 — التمدن الاسلامي لجرجي زيدان
- 9 — لماذا تأخر المسلمون للامير شكيب ارسلان .
- 10 — العرب للدكتور فليب حتى
- 11 — المستشرقون لعقيتي
- 12 — محاضرات في الادب للدكتور شوقي ضيف
- 13 — فوائد مسجلة مخطوط .
- 14 — عشيات وادي اليايس ديوان شعر لمصطفى وهبي التل .
- 15 — وطنية خالدة وازاهير الصحراء .
- 16 — تعلم الفارسية .
- 17 — اسطورة الادب الرفيع
- 18 — ترجمة القرآن عبد الرحيم محمد علي
- 19 — القرآن والاحوال المناخية محسن عبد الصاحب المظفر .

